القرآن

بحث علمي تاريخي اثري

١ — ما هو القرآن

القرآن عَلَمٌ للكتاب الذي يقدّسه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها . ويتبركون به ويتبعون سننه وفرائضه . ويعتقدون اعتقاداً راسخاً انه أُنزل على النبيّ العربيّ محمد بن عبد الله وأنه آخر الكتب السماوية نزولاً [١] و « انه لقرآن كريم . في كتابٍ مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيلٌ من ربّ العالمين » [٢] .

سُمي القرآن من القراءة . وسمي « كتاباً » و « فرقاناً » على ما ورد في سورة آل عمران : « نزّل عليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل . من قبلُ هدًى للناس وأنزل الفرقان » [٣] .

ولما بويع عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ) ثالث الخلفاء الراشدين بلغه ان المسلمين اختلفوا في قراءة القرآن قدْر اختلافهم في لهجاتهم . فلم يَرَ الا ان يجمع آياته ويضبْطها بلغة قريش التي نزل بها القرآن . ثم كتب أربع نسخٍ منه بعث الى كلّ مصرٍ من الأمصار الاسلامية بنسخةٍ . وأمر الناس ان ينقلوا عنها مصاحفهم وأوعز بإحراق كلّ ما خالفها من المصاحف .

ولم يتسمح المسلمون في نقل القرآن الى لغات البلاد التي دوّخوها أو الى غيرها من اللغات بل تمسكوا تمسكاً متيناً بعقيدتهم المستندة الى ما ورد غير مرّة في الكتاب كقوله : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » [٤] . وكقوله : « قرآناً عربياً غير ذي عِوَج » [٥] .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين : لمحمد فريد وجدي : مجلد ٧ صفحة ٦٦٦ (٢) القرآن : سورة الواقعة ٧٧ — ٨٠ (٣) القرآن : سورة آل عمران ٣ — ٤ (٤) القرآن : سورة يوسف ٢ (٥) القرآن : سوره الزمر ٢٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ — توحيد القرآن لشتات الأُمة العربية

جاء القرآن والعرب فِرَقٌ متنابذة وشِيعٌ متحاقدة تكفر كلٌّ منها سائر الفرق وتناهضها وتُضمر لها السوء والشر . وناهيك ان العرب ظلوا مئات الأعوام على حالٍ واحدة من الخشونة والبداوة لايتحولون عنها ولا يسأمون منها . فكانوا ممزّقين طرائق ومفرّقين حزائق في أجدب المفاوز بل في أبعدها عن النظام والعمران والثقافة . وكانوا مختلفين في مواطنهم ولهجاتهم وعاداتهم لاتضمهم رابطة سياسية ولا جامعة دينية أو قومية .

ما كاد يظهر الاسلام حتى أحدث القرآن في أنصاره وأتباعه انقلاباً غريباً عجيباً لم يكونوا يتوقعونه على الاطلاق . فبعد ما كانوا متسكعين في دياجير الجهل منقسمين الى قبائل وبطون لايعرفون من الشؤون الاجتماعية شيئاً دأبهم الغزو والنهب والقتل وأخذ الثأر أصبحوا بقوة القرآن أُمة متوحدة في لغتها ودينها وشريعتها وسياستها .

ومن المدهش أنّ الأمة العربية التي كانت قبل الاسلام ذليلةً ضئيلة تحوّلت بعدَهُ من الضعف والخمول الى العزّ والبسطة والسلطان . فنهضت نهضة الرئبال واستجمعت قواها حتى تألفت منها دولةٌ منيعة بطشت بدول ذلك العصر كدولة الفرس والرومان واليونان . ولم تلبث ان أحاطت بشعوب تلك الدول تدعوهم الى واحدةٍ من ثلاث : الاسلام او الجزية او الحرب [1] . ولا غرو فان هذه النهضة السريعة حيرت العالم طرّاً وعدّها القوم حادثاً من أعجب حوادث التاريخ .

من المقرّر الثابت أن للقرآن فضلاً كبيراً في تأليف شتات العرب وتوحيدهم مع الأُمم المغلوبة المتباينة في لغتها ودينها وجنسها ووطنها . فكوّن من مجموعها عنصراً جديداً مستقلاً هو العنصر العربيّ . ومن المقرر الثابت أيضاً انه لولا القرآن لما انتشرت اللغة العربية الفصحى في الخافقين . ولولا القرآن لما أقبل ألوف الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة وعلى كتابتها ودرسها والتعامل بها . ولولا القرآن — نعم لولا القرآن — لظلّ أهل كلّ بلدٍ من البلدان التي دوّخها العرب ينطقون بلهجةٍ يستعجمها إهلُ البلد الآخر .

(١) دائرة معارف القرن العشرين مجلد ٧ صفحة ٦٨١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالقرآن عزّز الجامعة العربية وصان عنصرها وضمن سلامتها على توالي الأزمان . ذلك لان الدين الاسلامي فرض على كل مسلم ان يدرسه ويحفظه ويجوّد قراءته قبل أي علم من العلوم البشرية . هكذا حُفظ التفاهم بالعربية بين الشعوب الاسلامية وغيرها من الشعوب في الحجاز واليمن والعراق وحضرموت ومصر وفلسطين وسوريا ولبنان وما بين النهرين . وفي طرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وزنجبار والسودان وهلمّ جراً .

وما ان تقهقرت الدول العربية وتقهقرت معها الحضارة الاسلامية القديمة حتى خُشي ان تندثر لغة تلك الدول وتندمج في لغة الشعوب المغلوبة على أمرها . غير ان اللغة العربية استعصت على نكبات الدهر ورسخت رسوخ الجبال الروامي خلافاً لما انتاب لغات الأقوام الذين اندمجوا في العرب بعد الاسلام كالروم والسريان والاقباط والانباط والصابئة واليهود وغيرهم .

٣ — تأثير القرآن في المسلمين العرب وغير العرب

من روائع تأثير القرآن ان أئمة المسلمين من غير العرب يرتلونه بلغته العربية ويحافظون على تجويده ويشرحونه لأبناء لغاتهم في أنأى الأمصار . واذا أنعمنا الفكرة في أولئك المسلمين غير العرب ألفينا عددهم يناهز مائتي مليون نسمة وهم منتشرون في أغلب الأقطار شرقاً وغرباً . أعني تركيا وايران وكردستان وكرجستان وافغانستان وبلوخستان . وفي روسيا والبلقان والهند وجاوة والصين واليابان والحبشة وقلب افريقيا وبعض انحاء اوربا واميركا واستراليا .

تلك مزية تفرّد بها القرآن دون سواه من الكتب المنزلة . فالتوراة مثلاً لا يقرأها بلغتها العبرية الا احبار اليهود ونفرٌ ممن تفرّغوا لدرسها . وأما سائر اليهود فان كلاً منهم لا يقرأ التوراة الا بلغة سكان البلاد التي يعيش فيها . وقس عليهم كلّ المسيحيين في انحاء العالم بأسره . فانهم يقرأون الكتاب المقدّس مترجماً الى اللغة الجارية بالاستعمال لدي كلّ شعب او كل ملة منهم . فلا يقرأه بلغاته الاصلية اعني العبرية والسريانية واليونانية الا العلماء فقط وفئة من نصارى الشرق الأدنى وفريق من نصارى الملبار في الهند الانكليزية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يتضح مما بسطناه ان القرآن هو المصحف الذي جمع كلمة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ولغاتهم وأوطانهم . وأحدث انتشاره تأثيراً كبيراً في أخلاق الشعوب التي دانت بالاسلام وفي عقولهم وآرائهم وميولهم . فأدمجوه في كلّ شأن من شؤونهم دينية ودنيوية . واتخذوه مصدراً لقضائهم ودعامةً لمنازعهم السياسية -وسائر أمورهم حتى طعامهم وشرابهم وكسوتهم وعيشتهم المنزلية واعمالهم التجارية .

وتتجلى الصبغة الدينية القرآنية في مؤلفي الاسلام ومؤلفاتهم ولئن كتبوا في مواضيع لا صلة لها بالدين . تشهد على ذلك مصنفاتهم في الفلاحة والفلك والهندسة والجبر والكيمياء والطبّ والفلسفه والتاريخ حتى الصرف والنحو .

وخلاصة القول انّ للقرآن في لغته العربية البحتة تأثيراً عميقاً جداً، وقد حرص المسلمون بقوّة القرآن وما برحوا يحرصون على سُننه وفرائضه ونوافله في كلياتها وجزئياتها . واعتنوا غاية الاعتناء بضبط سوره وآياته وأجزائه وأحزابه والفاظه وحروفه ونقاطه وحركاته وسكناته . وتوافروا على استقصاء حقائقه ومجازاته وتصاريحه وكناياته ودقائقه ونكاته .

٤ — اجماع الخلفاء والملوك والمسلمين كافةً على تعظيم القرآن

أجمع المسلمون قاطبةً منذ فجر الاسلام على إجلال القرآن . وبالغوا في تكريمه وعنوا بصيانته عنايةً ليس بعدها عناية . فدوّنوه على صفائح من ذهب وفضة وعاج وآبنس . وطرّزوه بأسلاكٍ من قصبٍ على حرير أو قطيفة أو ديباج او ارجوان . ونقشوا آياته على أعمدة المعابد والقصور وعلى جدران المكتبات والدواوين . وعلى الأمتعة والآنية والأسلحة والرايات . وتفننوا في كتابته بأشكال الأقلام والخطوط وأنواع المداد والكاغد وألوان النقوش والزخارف . وعلقوه على صدورهم تيمناً يتقون به كوارث الدهر ويتعوّذون به من هجمات العدوّ . واتخذوا له قماطر فاخرة وأصونةً نفيسة . واستصنعوا لحفظه من التلف والدثور خزائن بديعة . ووضعوه في محاريب الجوامع ورفعوه على كراسيّ رُصعت بحجارة كريمة وجواهر يتيمة . وتنافس المسلمون في إجادة كتابة القرآن تنافُسَ غيرهم من الشعوب في فن التصوير . ومرّ بنا ان أمير المؤمنين عثمان بن عفان كتب أربعة مصاحف بعث بها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى الآفاق . واقتفى أثره الحجاج بن يوسف الثقفي فكتب نسخاً من المصحف أهداها الى عواصم المملكة[١] . وتعهد الرحالة ابن بطوطة المقصورة العظمى التي يؤمها إمام الشافعية في قبلة المسجد الأموي . فشاهد في ركنها الشرقي ازاء المحراب خزانة كبيرة يزينها المصحف الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان الى الشام . ولم تكن تفتح تلك الخزانة الا كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثمه اي ازدحام[٢] .

وحوى منبر جامع قرطبة بالأندلس مصحفاً من مصاحف الخليفة عثمان . وقد وشح بحلة ذهبية رصعت بالدر والياقوت وغشي بالديباج . وركز هذا المصحف على كرسي من العود الرطب مطعم بمسامير من ذهب[٣] . وفي السنة ٥٥٢ للهجرة نقل المصحف من قرطبة الى مراكش بمجالي التكريم والتعظيم . وظل في حوزة السلاطين الموحدين حتى قتل السعيد علي بن ادريس عام ٦٤٥ للهجرة . وكان هذا السلطان قد نقله معه الى تلمسان فنهب المصحف هناك . ثم عثر عليه ملوك بني عبد الواد وظلوا محتفظين به ريثما افتتح إفريقية السلطان ابو الحسن المريني . فاستولى على المصحف وحمله معه في رحلاته وفتوحاته تيمناً . واتفق انه لما قفل بحراً عام ٧٥٠ للهجرة من تونس الى المغرب هاجت عاصفة شديدة أغرقت المراكب بمن فيها من نفوس وما فيها من نفائس . وأخصها وأنفسها مصحف الخليفة عثمان فكان ذلك آخر العهد به[٤] .

واشتملت خزائن كتب المسجد الأقصى بالقدس الشريف على نصف مصحف أثري كتبه بالخط الكوفي محمد بن الحسن بن الحسين ابن بنت رسول الله .

وضمت خزانة كتب النجف الأشرف عند ضريح الإمام علي بن أبي طالب نسخة من القرآن خطها ابنه الحسين[٥] . وفي السنة ١٩٤٠ سعى السرداد طاهر زين الدين أحد أغنياء المسلمين في الهند لتجديد هذا الضريح ، فاستصنع له خشباً من الآبنوس رصع بخمسين رطلاً من الذهب الابريز وخمسة عشر رطلاً من الفضة الخالصة .

(١) الروزنامة التونسية : سنة ١٣٢١ هـ صفحة ١٤٠ (٢) رحلة ابن بطوطة : جزء ١ صفحة ٥٢
(٣) نفح الطيب : للمقري : مجلد ١ صفحة ٢٥٦ (٤) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى : تأليف احمد بن خالد الناصري : جزء ١ صفحة ١٥٠ (٥) مجلة المقتبس في دمشق : مجلد ٧ صفحة ٩٣٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجعل ارتفاعه احدى عشرة قدماً وقطره عشرين قدماً . وبلغ ما أنفقه هذا عليه السردار السخي اثنين واربعين مليوناً من الجنيهات الاسترلينية [١] .

واعتاد ابراهيم بن يمين الدولة سلطان بخارا ان يبعث كل عام الى مكة المكرمة بنسخة من القرآن يكتبها بخط يده . وذكر المقري ان ابا الحسن المريني سلطان افريقية نسخ بيده ثلاثة مصاحف أتحف بها المساجد الثلاثة التي تُشدُّ الرحال اليها في مكة المكرمة والمدينة المنوَّرة والقدس الشريف . وسطر المريني نفسه الختمات الشريفة بقلمه المُجيد المُجدي [٢] . ثم اشترى عقارات بالشام قيمتها عشرة آلاف دينار حبسها على الفقراء وعلى خزَنة المصاحف [٣] .

وقرأنا وصفاً لقرآنٍ مستبدعٍ خطه بيده السلطان ابو الحسن المريني المشار اليه وحبسه على الحرم الشريف . وفيه ان هذا السلطان كلف القراء ليضبطوه وأمر الورَّاقين ان ينقوه ويذهبوه . واستصنع له صِواناً ظريفاً من الآبنس والعاج والصندل دبجه بصفائح ذهبية مرصعة بالجواهر والياقوت . وجعل ذلك المصحف في قمطر من جلدٍ فاخر وحُشي بخطوط ذهبية وغُلف بوشاحٍ ارجواني [٤] .

وشاهدنا نحن في دار الكتب المصرية مصحفاً قديم العهد قرأنا في آخره انه « بخط الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين ابن الخليفة علي رضي الله عنهم » واطلعنا في تلك الدار عينها على مصحف كُتب برسم « الجايتو » سلطان المغول (٧٠٣ — ٧١٦ هـ) [٥] . في مطلع القرن الثامن للهجرة .

ومن نفائس دار الكتب المصرية أيضاً مصحف محمد بك ابي الذهب والي مصر وأحد زعماء المماليك في أواخر القرن الثاني عشر للهجرة . كان هذا المصحف محفوظاً في جامع ابي الذهب ازاء الجامع الازهر بالقاهرة ثم ضاع واحتجب عن الأبصار . وفي السنة سبع وستين وثمانمائة بعد الالف ارتحل الخديوي اسمعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) الى باريس فعثر على هذا المصحف النفيس في متحف اللوفر . واتفق مع أولي الأمر

(١) جريدة البشير : مجلد ٧٠ عدد ٦٠٥٩ سنة ١٩٤٠ (٢) نفح الطيب : مجلد ٢ صفحة ٥٤٧
(٣) تاريخ ابي الفداء : جزء ٤ صفحة ١٤٩ (٤) الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى : جزء ٤ صفحة ٦٢ — ٦٣ (٥) نبذة عن دار الكتب المصرية لسنة ١٩٣٩ صفحة ٢٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفرنسيين على إعادته الى مركزه في مصر . وقد نُسخ المصحف المشار اليه بخط مغربي وبعد آية من الآيات بجمال فنه ودقة صنعه وجودة حبره وقرطاسه .

وامتاز غياث الدين ملك الغورية بخطه الظريف فنسخ مصاحف جمة حبسها على المدارس التي شيدها[١] . وكان السلطان علاء الدين يكتب المصاحف بخطه الحسن ويقفها على المساجد[٢] .

وهناك مصاحف أثرية عديدة محفوظة بكل تعظيم واجلال في صروح السلاطين والأُمراء وأقطاب المسلمين لا يتسع الوقت لوصفها . وحسبنا الاشارة الى ما احتوته من تلك المصاحف النادرة قصورُ خلفاء بني عثمان وملوك ايران وافغانستان وخزائن نظام حيدر آباد في الهند . نضيف اليها مكتبات الأيمة وهواة الكتب وغلاة الآثار في مختلف الأصقاع والأمصار .

٥ — نسّاخ القرآن ومنمّقوه

روى التاريخ اسماء رهط عظيم من الخطاطين اشتهروا بنسخ المصاحف في العصور الخالية . بينهم سلاطين وخلفاء وأُمراء ووزراء وأئمة طبق الآفاق صيتهم . فما عدا من ألمعنا بأسمائهم يطيب لنا ان نذكر سلطان المغرب ابن عبد الحق الذي نسخ ثلاثة مصاحف على رقّ غزال . ولم يزل احدها محفوظاً في خزائن المسجد الأقصى بالقدس الشريف . وهو مجلد طبقاً للفن المراكشي ومكنوز في صندوقة مرصعة بالميناء على الطراز الأندلسي .

واشتهر عن السلطان ناصر الدين ملك الهند والسند المعروف بصلاحه وتقواه انه كان ينسخ المصاحف ويبيعها ويقتات بأثمانها[٣] . واثبت ابن بطوطة انه وقف على مصحف محكم الكتابة نسخة السلطان المشار اليه بخطه المتقن[٤] .

وتفرّد بنسخ المصاحف علي بن محمد بن مقلة (٣٢٨ هـ) وزير الخليفة العباسي المقتدر

(١) تاريخ أبي الفداء جزء ٣ صفحة ١٠٤ (٢) أخبار الدول لابي العباس القرماني: صفحة ٢٨٣

(٣) يذكرنا هذا الخبر بما رواه التاريخ عن ثئوديوس الكبير ملك الروم [٣٧٩ — ٣٩٥ م] انه كان في أثناء الفراغ من شؤون المملكة يكبّ في غرفته على نساخة الكتب ثم يبيعها وينفق اثمانها على معيشته الخاصة . (٤) رحلة ابن بطوطة : جزء ٢ صفحة ٢١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالله . فقد وجدوا له بخطه نرائع مائة مصحف في مكتبة ابي نصر شابور (٣٢٦ – ٤١٠ هـ) ابن اردشير في الكرخ ببغداد[١] . وفاق ابن مقلة في نسخ المصاحف ابو عبد الله الناسخ . وقد طالعنا عنه في «تاج العروس» انه كتب بخطه الف مصحف . ونسج على منوالها كثير من قدماء الخطاطين كأبي عمر بن قدامة (٥٢٨ – ٦٠٨ هـ) الذي نسخ الكتب الوافرة ولا سيما المصاحف .

وامتاز بنسخ المصاحف وزخرفتها الشيخ محمد نعسان الوردي الحموي في القرن الثالث عشر للهجرة . وأثبت لنا ابن حفيده ان عدد ما نسخه منها أربى على مائة مصحف وجاراه في ذلك ابنه الشيخ مصطفى نعسان وقد أحرز شهرةً واسعةً في تنميق المصاحف ونساخة المصنفات القديمة .

ولم يكُ حظ النساء الخطاطات بأقل من حظ الرجال الخطاطين في تحبير المصاحف . فقد طالعنا في كتاب « مرآة الأدوار » أن الخطاطة « بادشاه خاتون » نسخت من المصاحف الشريفة ما لا نظير له .

وذكر ابن فياض في تاريخه : « انه كان بالربض الشرقي في قرطبة بالأندلس مائة وسبعون امرأة يكتبن كلهن المصاحف بالخط الكوفي » . فاذا كان ذلك كذلك في ربض واحد فكم كان من النساء الكاتبات في جميع أرباض قرطبة التي بلغ عددها ثمانية وعشرين رَبَضاً[٢] .

ويشاهد زائر مكتبة القيروان الشهيرة في زماننا مصاحف قرآنية مزدانة بالزخارف مطعمةً بالذهب نمقها انامل فتياتٍ مسلماتٍ في العصور الغابرة . وكانت تلك الفتيات يتنافسن في تجويد الكتابة وتزويقها ويختمن كل مصحف بهذه العبارة : « هذا من صُنع وقلم فلانة بنت فلان قدمته هدية لخطيبها فلان بمناسبة الاحتفال بزواجهما »[٣] . الى غير ذلك من نوادر مختفي المصاحف ومحبريها رجالاً ونساءً .

(يتبع) فيليب دي طرازي

(١) معجم البلدان لياقوت الرومي : جزء ٢ صفحة ٣٦٣ والتاريخ الكامل لابن الأثير : جزء ١٠ صفحة ٣

(٢) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق : مجلد ٢ سنة ١٩٢٢ صفحة ٢٦٥ (٣) المكتبات العربية في المملكة التونسية : مخطوطة بقلم البشير الفوراتي : صفحة ١١ وهي في خزانة كتبنا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net